إتمام النعمة

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م

دار المشرق العربى

القاهرة – ٣٣ شارع القصر العينى : ت : ٣٦٣٢١٨٧

إتمام النعمة

في

إختصاص الإسلام بهذه الأمة

للإمام جلال الدين السيوطى

عبد الرحمن بن أبى بكر . المتوفى سنة ٩١١هـ

تقديم وتحقيق

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

الدكتور السيد الجميلى

الناشـــر

دار المشرق العربى

القاهـرة

إهداء

إلى أهل التوحيد الأخيار أهل التقوى وأهل المغفرة ، الناجون من عذاب الله وعقابه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

نُهدى هذه الدراسة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أراد الله سبحانه وتعالى خيراً بهذه الأمة المحمدية فاختص بها الإسلام ، وهو دين القيمة ، والمحجة البيضاء ، وجادة السواء ، والاستقامة ، فمن استوى على طريقه فاز ونجا وأفلح ، أما من جنف عنه ، وزاغ وحاد وألحد فيه فقد شقى شقاءً لا مزيد عليه ، وهلك هلاكاً أبدياً لا نجوة منه .

وقد تعرض المسلمون - وهم أهل الحنيفية السمحة - لكثير من الفتن والزعازع والنكبات التى ابتلوا بها لكنهم كانوا - والحمد الله - على درجة من الصلابة ، وقوة اليقين ، راسخين متمكنين فلم ينل منهم ، ولم يفت فى ساعدهم شيىء ؛ لأنهم كانوا مستمسكين بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

ولما أدركت الشيخوخة صرح الخلافة العباسية وأعملت فيها عوامل التهوين والفتور والضعف ، جعلتها غرضاً وهدفاً للطامعين الهمج فقد تعرضت للحملات المغولية التى عجلت بنهايتها وأتت بنيانها من القواعد ، وخربت عمرانها وأدالت دولتها ، وحطمتها تحطيماً ؛ فقد كانت بغداد حاضرة الملك فى ذلك الوقت - منتصف القرن السابع الهجرى - مسرحاً لهذه الهجمات والحملات الضارية بقيادة « هولاكو » التى أكلت اليابس والأخضر وعاثت فى الأرض فساداً ، وفرقت المسلمين أيدى سبأ ، وضعضعت ركنهم ، وكسرت شوكتهم ، وفتت فى ساعدهم ، فقد قتل الخليفة القائم ، وأهانوا الشعب الآمن وأذلوه ، وألقوا بالتراث الإنساني بمكتبة بغداد فى نهر دجلة ، وحرقوا ما بقى من خزائن الكتب ، ولم تأخذهم شفقة ولا حدب ولا هوادة بل تفاقم كلبهم بصورة مروعة أفزعت من بقى فيه حشاشة من نفس مروعة مفزوعة غير آمنة .

هذا هو حال المسلمين فى ذلك الوقت فى بغداد الحاضرة المنكوبة ، أما بقية الممالك والأمصار الإسلامية فقد غربت عنها شمس الحياة ، وآذنت دولتها بالزوال وسعى إليها التمزق والخراب ، والضعف ، والانهيار والتصدع ؛ فقد استولى المغول على فارس والعراق ، ولم تكن الأندلس بأحسن حالاً من العراق وفارس فقد كانت هي الأخرى فريسة وطعماً سائغاً للخور والضعف والاستسلام .

أما الديار المصرية والشامية فقد كانت فى حكم المماليك الذين رأوا الفرصة مواتية لكى تتصدر مملكتهم لزعامة العالم الإسلامى لما كانوا يستمتعون به من صلابة وقوة ؛ فبايع الظاهر بيبرس البندقدارى – خليفة بنى العباس ونودى باسمه فى المساجد عقيب الصلاة ، من ثم أصبحت مصر قبلة العلم والعلماء ، وحاضرة الملك والخلافة الإسلامية التى يهرع إليها العلماء والفضلاء من علية القوم وأكابرهم .

وقد فطن المماليك إلى أهمية وخطورة الدور الذى تمثله مصر بعد سقوط بغداد ، وتفكك الأندلس – فاهتموا بالعلم وأهله وقدروا العلماء ، وخلعوا عليهم من حلل الكرامة ما يليق بشرف العلم ورجاله فتوسعوا فى إنشاء المدارس ، وبناء المساجد وأقاموا الخوانق والرباطات ، وأوقفوا عليها الأوقاف ، وحبسوا عليها المال والضياع وقفة على طلبة العلم والدارسين .

كان أمراً طبيعياً أن تنشط حركة التعليم بتأسيس المدارس الكاملية والصالحية والناصرية والظاهرية والمؤيدية وغيرها .

وقد تأسست أيضاً خزائن الكتب مثل خزانة المدرسة المحمودية والصاحبية والفاضلية التى حفلت بالمصادر والمراجع الموسوعية التى استقطبت طلبة العلم ورجاله فطفقوا ينهلون منها ويبثون شعاع المعرفة إلى مختلف الأقطار .

وفى النهاية تبلجت الأنوار ، وانقشعت سحب الظلام ، وكان لابد لليل من آخر ، فتبلج نور الصبح وبدا شمراخه ، وانشق عموده بمولد ونشأة الإمام العلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى فنهل من هذه النهضة الميمونة المباركة فانخرط فى طابور الدارسين المنهومين ، وقد شاءهم وبزهم وأربى عليهم بما رزقه الله من حافظة واعية ، وقدرة فائقة ، وأفق فسيح ، ومجال ممدود غير محدود .

لقد أخذ من جلة شيوخ عصره ، ثم إذا به يصبح أستاذاً لهم جميعاً بلا منازع شاء شانئوه أم أبوا .

وقد استثمر السيوطى ذكاءه ، وفطنته فصرف همته إلى التأليف واتجه بكليته إلى التصنيف فجمع شتات العلوم الشائقة فى عصره فى دقة ووعى وعمق .

صنف السيوطى فى كثير من العلوم ما خلا قليلاً منها وقد ترك لنا كنوزاً ثرية مأهولة تتلمذ له فيها كثير من الأشياخ والنجباء ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مكتبة السيوطى تمثل مورداً سخياً عذباً وفراتا سائغاً نهل منه الصادر والوارد ؛ ولذلك فإنه بها ظلم كثيراً ممن سبقوه ، وظلم من أتى بعده .

وصنع – رحمه الله – كتابه القيم « معترك الأقران فى إعجاز القرآن » سائراً فيه على نهج الزركشى فى « البرهان فى علوم القرآن » إلا قليلاً ، وقد طبع فى ثلاثة مجلدات ضخمة لم يترك بعده زيادة لمستزيد .

ثم إنه لم يكتف بذلك بل وضع درته القيمة النفيسه « الإتقان » الذى ليس له ضريب – فيما نعلم – فى دقة تناوله واختصاره وشموله وبساطته فى موضوعه .

كما أن كتابه « المزهر فى علوم اللغة » أيضاً من أجمع ما كتب فى موضوعه بل ربما نقطع بأنه شاء وبزَّ مؤلفات الأقدمين ، وارتقى إلى أعلى مستويات التصنيف ، وهو لا يقل بحال عن المبرد والأصمعى ، وابن قتيبة وابن جنى .

وقد قيل إن المزهر ليس للسيوطى يد فى تأليفه إنما هو جمعه من مؤلفات المتقدمين . وليس فيه له إلا التبويب والتقسيم والتفصيل ، ونحن نقول : إن هذا هو جماع التأليف . فإن معاجم اللغة جميعها عرِّفت التأليف بأنه جمع الأشياء وضمها بعضها إلى بعض . ودور المؤلف فيه هو أسلوبه فى الجمع ، وكيفية الربط فلا يجب أن يجمع المتجانس بغير المتجانس ، ولا يجوز جمع المؤتلف بالمختلف من ثم تبرز ، وتنجلى شخصية المؤلف .

وقد ترجم السيوطى – رحمه الله – لنفسه فى كتابه حسن المحاضرة (١٤٠/٢) كدأب كثير من متقدمى المؤلفين مثل لسان الدين بن الخطيب فى تاريخ غرناطة ، وأبو شامة فى الروضتين ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء .

تحدث السيوطى عن نفسه وعن نشأته وعن أجداده ، وقال إن جده الأعلى همام الدين كان من أهل الحقيقة ، ومن مشايخ الطريق ، وقد بنى مدرسة بأسيوط ووقف عليها أوقافاً ، ثم يزعم – وهو صادق – أن والده لم يكن له ضريب فى خدمة العلم حق الخدمة .

ثم يذكر السيوطى فى حسن المحاضرة أنه قد نما إليه ممن يثق به أن أباه قد ذكر أن جده الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق .

وقد لخصنا حياته من حسن المحاضرة بتصرف يسير مع بعض الزيادة من مصادر أخرى ترجمة له :

فقد ولد شيخنا الإمام السيوطى بالقاهرة بعد المغرب ليلة الأحد مستهل سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، ثم حُمِلَ فى حياة أبيه إلى الشيخ محمد المجذوب ، كان يقيم بجوار المشهد النفيسى بالقاهرة ، وهو رجل اشتهر بالولاية والورع ، فبارك عليه .

ثم نشأ يتيماً فحفظ القرآن وله دون ثمانى سنين ، ثم حفظ العمدة ، ومنهاج الفقه ، والنحو عن جماعة من الشيوخ . وأخذ الفرائض عن العلامة فرضى زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحى الذى كان جاوز المائة ، وأربى عليها بكثير ، قرأ عليه شرحه ، ثم أجازه بتدريس العربية فى مستهل سنة ست وستين وثمانمائة .

وقد ألف فى هذه السنة أول مؤلفاته ، وباكورة روضته الفيحاء ، الوارفة الظلال ، الممدودة الأفياء كتاب شرح « الاستعاذة والبسملة » وأوقف عليه الشيخ علم الدين البلقينى فكتب تقريظاً عليه ، وقد لازمه فى الفقه إلى أن مات ــ رحمه الله ــ .

ثم يقول إنه بعد ذلك أجيز بالتدريس والإفتاء من سنة ست وسبعين وثمانمائة .

ثم قرأ قطعة من المنهاج على الشيخ شرف الدين المناوى آخر علماء ومحققى الشافعية ، والذى توفى سنة ٨٧١هـ .

ثم تتلمذ بعد ذلك فى العربية والحديث للإمام العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى ، قاضى الحنفية – المتوفى سنة ٨٧٢هـ – فكتب له تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك بعد صحبة دامت بينهما أربع سنوات وقد شهد له بالنوغ والعبقرية والتفوق .

ثم لزم بعد ذلك الإمام العلامة « أستاذ الوجود » — كما سمّاه محيى الدين الكافييجى – الذى توفى سنة ٨٧٩هـ – أربع عشرة سنة .

وحضر – رحمه الله – عند الشيخ سيف الدين الحنفى المتوفى سنة ٨٨١هـ دروساً عديدة فى الكشاف والتوضيح ، وحاشيته عليه ، وتلخيص المفتاح .

وقد شرع فى التصنيف فى سنة ست وستين وثمانمائة . ثم يقول عن نفسه : « ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبديع على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم ، وأهل الفلسفة .

وقد بلغت كتب الإمام السيوطى خمسة عشر وأربعمائة مصنفاً بين مخطوط ومطبوع ، وقيل بل ستة وسبعون وخمسمائة .

□ □ □

كان نتيجة لطول باعه فى التأليف وصبره عليه ، هذا الرصيد وهذه الثروة الطائلة من الكتب الكثيرة ، ولم يكن مثل السيوطى الذى لفت الأنظار إليه لبراعته وطول باعه – أن يفلت من سموم الحقد والكتائف من الحاقدين الموغورين الذين وقعوا فيه ، وافتروا عليه وقذعوه بالسباب ، وطاخوه بالقبائح والمنكرات .

وكان أقل ما قذفوه به السطو والسرقة ولم يكن ذنبه فى ذلك إلا أنه تفرغ للتأليف فقدم هذه الكتب الكثيرة ، ادعوا وزعموا أنه لا يمكن أن يكون قد ألف فعلاً هذا المقدار الهائل من هذه الكتب بل نحل كثيراً من كتب أشياخه لنفسه بعد أن غيَّر فيها قليلاً بالتقديم تارة ، وبالتأخير تارة أخرى ، وكان يقود جبهة المعارضة الإمام السخاوى .

وفي الضوء اللامع للسخاوى (٦٥/٤) نراه يقول فى ترجمة السيوطى :

« واختلس حين كان يتردد إلىّ مما عملته كثيراً–كالخصال الموجبة للظلال ، والأسماء النبوية ، والصلاة على النبى ﷺ ، وموت الأبناء ، وما لا أحصره ، بل أخذ من كتب

المكتبة المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التى لا عهد لكثير من أهل العصر بها ، فغير فيها يسيراً ، وقدَّم وآخَّر ، ونسبها لنفسه » .

فى هذه الترجمة الجائرة ، والأوصاف غير اللائقة ، نرى السخاوى – وهو عالم جليل – يقدح ويزرى على السيوطى ، وهذا الإنحاء والزراية على علم مفرد وعبقرى كبير كالسيوطى لا يمكن أن يطمئن إليها عاقل أو منصف لأمرين :

الأمر الأول : أن السيوطى كان رجل علم وفضل ولم يكن مثله من يقدم على اقتراف هذه الرذائل التي لا تليق بمن علم علمه ، وفقه فقهه ، فإنه بعلمه وثقافته ليس محتاجاً لأن ينحل علماً من أحد لينسبه لنفسه .

الأمر الثانى : أن السخاوى وهم عالم كبير قد ولع وكلف بالنيل من العلماء ، والانتقاص من أقدارهم ، وليست هذه بالخلة الكريمة التى يجب أن يتحلى بها العالم ، فقد نال السخاوى من غير السيوطى وحمل عليه ظلماً ، وكان حريا به ، وقمينا بمثله أن يربأ بنفسه عن الطعن ، والاستطالة على أكابر العلماء .

إن السيوطى الذى نعرفه جميعاً لم يكن ليحمل ظلماً على أحد ولكن قيل إن سبب التنازع بين السخاوى والسيوطى هو الخلاف على التدريس ، ولعن الله الحرص أذل أعناق الرجال .

لكنا مهما بلغ السيل الزبى ، ومهما كان الأمر لا نرى الإغراق فى الدنيا يغير فطرة العالم الورع الزاهد الذى ذاق حلاوة العلم ونفذت بصيرته إلى أعمق أعماقه .

ولقد كان السيوطى ورعا فاضلاً ، وتقيا رشيداً ، امتاز بعزة النفس ، وكان مترفعاً فى ذاته على كل الدنايا ، ولم يفعل ما سعى إليه أضرابه من العلماء الذين يتقربون من الوزراء والأمراء والسلاطين حتى ينالوا الرضى والقرب ؛ ذلك أنه أحس حلاوة القرب من الله ، ومن العلم ، ولا يمكن لمن أحس هذه الحلاوة واللذة والمتعة أن يعدل عنها إلى قرى وزير أو كبير .

ثم رأى السيوطى أن من واجبه الدفاع عن نفسه فجرد نفسه فى رسالة سماها « مقام الكاوى على تاريخ السخاوى » ندد فيها بالسخاوى ، وقال فيه أقوالاً يعف الإنسان عن الخوض فيها ولا نملك إزاء هذا كله إلا أن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يتجاوز عن كلا العالمين الجليلين ، وأن يغدق عليهما وابل الرحمات لقاء ما أسديا للعلم والدين من عرق وجهد .

ثم عوجل إلى رحمة ربه فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وكان قد أصيب بورم شديد فى ذراعه الأيسر سبعة أيام .

رحم الله الإمام السيوطى رحمة واسعة .

المحققان

فبراير ١٩٨٩م

مكتبـــة الســـيوطى

لا أحد لا يعرف السيوطى المصنف الموسوعى الذى طوَّفت كتبه أرجاء الأرض قاطبة فى مختلف وشتى صنوف المعرفة الإنسانية والإسلامية .

ومهما قيل عن **طريقه** فى التأليف ، أو النقل إلا أننا نرى ذلك لا يشينه ، ولا يصمه بحال ، بل إن مؤلفاته الفذة القيمة الجامعة لا يمكن أن يهتز مقدارها ، ولا يتصور أن تتحول عنها قلوب عارفيه بحال .

وقد ذكر نفسه ــ رحمه الله ــ أنه قد غسل ورجع عن كثير من مصنفاته بعد حين ــ وذلك عند ترجمته لحياته في كتابه حسن المحاضرة (١/١٥٥) .

وفي نفس المرجع ذكر أنه صنف ثلاثمائة كتاب . بيد أن المؤرخين أثبتوا له أكثر من هذا الرقم بكثير ، فقد عَدَّ له العلامة بروكلمان أربعمائة وخمسة عشر كتاباً ما بين مخطوط ومطبوع ، وأربى على ذلك فلو جل إذ قال إنها بلغت خمسمائة وستين كتاباً ، وقال غيرهما أكثر من هذا .

ولا يصح القدح في صحة هذه الأرقام ، كذا فإنه لا يصح دفع صحتها بحجة أن المؤلف صرح بنفسه بأن كتبه ثلاثمائة ، إذ أن تصنيف كتابه حسن المحاضرة قد كان سابقاً على وفاته بفترة أضاف إلى المكتبة بعد ذلك الكثير والكثير .

ثم إن السيوطى ربما يكون قد أهمل الرسائل الصغيرة والمتوسطة التى لم ير أنها تتناسب مع استرساله وإسهابه المعهود .

على أن الراجح الذى نعتقده أن يكون قد أهمل ما غسله ورجع عنه ، وقد عده المؤرخون ، والله سبحانه أعلم بالصواب .

ونعرض موجزاً سريعاً لأهم عناصر وآحاد هذه المكتبة التى تتلمذ لها أكابر العلماء ، وقد نالت منهم جميعاً قبولاً طيباً ، واستحساناً فريداً ، على الرغم من أنها لم تسلم من غمزات المغموزين ، وملاحاة الجاهلين ، وانتحال المبطلين .

١ ــ الإتقان فى علوم القرآن

وفي هذه الدراسة الدقيقة في هذا الكتاب القيم تنجلى عبقرية السيوطى ، وطول باعه ناهيك بورعه وتقواه . احتوى هذا الكتاب زهاء ثمانين نوعاً من أنواع التفسير . وكان قد فرغ ــ رحمه الله ــ من تأليفه سنة ٨٧٨ هـ . وقد طبع بهامشه (إعجاز القرآن للباقلانى) ــ الميمنية ١٣١٧ هـ ــ الأزهرية (١٣١٨) .

٢ ــ الأرج فى الفــرج

لخص السيوطى فى هذا الكتاب (كتاب الفرج بعد الشدة) لابن أبى الدنيا ، ثم زاد عليه .

وقد طبع بكتاب موسوم بتفريج المهج بتلويح الفرج الجامع لثلاثة كتب : الأول : حل العقال لابن قضيب البان ، الثاني : الأرج فى الفرج للسيوطى ، الثالث : (وهو بالهامش) معيد النعم ، ومبيد النقم لتاج الدين السبكى .

٣ ــ أســباب النــزول

وضعه لبيان أسباب نزول آيات وسور القرآن الكريم وقد طبع بمصر وبيروت طبعات كثيرة أما نسخة دار الكتاب العربى ببيروت بتحقيق السيد الجميلى فهى للواحدى .

٤ ــ الأشباه والنظائر فى الفروع والأصول

وهذا الكتاب ليس صحيحاً كما ذكر سركيس (في فروع الفقه الشافعى) ولكنه فى الأصول أيضاً ، وهو مرجع فريد انجلت فيه عبقرية السيوطى الفقيه المنتصر لمذهبه الشافعى ، وهو لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى الأصول أو الفروع الشافعية إلا وعرج عليها ، وأسهب فيها فكان لذلك هذا الكتاب فريداً فى شموله ودقته ، وقد نشر بهامشه قبل ذلك (المواهب السنية شرح الفوائد البهية) .

ـ الأشباه والنظائر النحوية

وهو كتاب جامع لأصول النحو والتصريف ، رتبه على سبعة فنون ، وقد طبع سلفا فى مصر وبيروت وحيدر أباد الدكن ١٧ ـ ١٣١٦ .

٥ ـ الإيضاح فى علم النكاح

طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٢٧٩ هـ ، ونحن نستبعد أن يكون هذا الكتاب للسيوطى ، وقيل إنه قد صنفه فى شبابه إلا أننا نستبعد ذلك ألبتة لأنه لا يتمشى مع أسلوب السيوطى المعروف المألوف .

والقول الذى نرتضيه أن كثيراً من الوراقة ـ رغبة فى الكسب غير الشريف ـ كانوا ينسبون لأفذاد وأكابر العلماء مخطوطات قديمة لمؤلفين مجهولين طمعاً فى التكسب وياله من كسب رخيص أباح الزيف والانتحال .

لكن العلماء الثقات الممارسين لدراسة أساليب وفلسفة التأليف سرعان ما يميطون اللثام عن هذه الأشياء المبهمة غير الظاهرة ، بل إن غير العلماء يشق ويصعب عليه ذلك .

٦ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة

كان السيوطى كثير الاعتزاز ، شديد التمسك غزير الحب لعلم النحو وأصوله ، حيث إنه كان من أشرف العلوم عنده ، وأول ما أفرد بالتصنيف الذى يعتزبه فوضع سبعة مجلدات ، ثم اختصرها في مجلد واحد .

٧ ـ تاريخ الخلفاء

تناول السيوطى فيه ترجمة الخلفاء وسيرة كل منهم ابتداء من أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ إلى الأشرف السلطان قايتباى وقد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة في كلكتا سنة ١٨٥٦م ولاهور سنة ١٨٧٠ هـ والميمنية ١٣٠٥ .

٨ ــ التعقيبات على الموضوعات

يعقب السيوطي فيه على (الموضوعات) لابن الجوزى ، وهو بهذا يسفر النقاب ، ويميط اللثام عن أخطاء وسقطات ــ غير مقصودة ــ لابن الجوزى ، على سبيل الاختصار ، وهو بهذا ينحو منحى الذهبي في مستدركه على الصحيحين .

٩ ــ تفسير الجلالين

مع الجلال المحلى ، وقد سار فيه على درب الإيجاز والاختصار ، وقد طبع مرات ومرات بمصر وبيروت وفي كثير من البلدان ، بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل بيت تقريباً لا يخلو من تفسير الجلالين لإختصاره وإيجازه وسهولة حمله .

١٠ ــ الجامع الصغير في حديث البشير النذير

لخصه من كتابه (جمع الجوامع) في الحديث ، وقد رتبه على حروف المعجم ، وقد فرغ ــ رحمه الله ــ من تأليفه سنة ٩٠٧ هـ ويقع في جزئين . وقد طبع في بولاق سنة ١٢٨٦ وبهامشة كتاب كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق لعبد الرؤوف المناوى ، وهو أيضاً جزءان .

١١ ــ همع الهوامع

هو جمع الجوامع في النحو ويشتمل على مقدمات في تعريف الكلمة وأقسامها ، ثم سبعة كتب ، وقد طبع مراراً بمصر .

١٢ ــ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة

يتحدث فيه السيوطي عن فضائل مصر ، وذكر من دخلها من الصحابة والتابعين ، ثم ترجم لملوك مصر ، وأعيانها ، والمبرزين من كل صنف ، ثم أحصى ما فى مصر من المساجد والمدارس ، ويعتبر ملخصاً لكتابات ثمانية وعشرين مؤرخاً ممن تقدموا عليه في الزمان .

١٣ ــ الخصائص الكبرى .

هو المسمى « كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب » وقد سرد وشرح وفصل المعجزات النبوية ، التى أربت على ألف معجزة ، وقد عكف على إعداده ــ كما ذكر هو ــ عشرين سنة .

ثم اختصره بنفسه وسماه « أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب »

وقد قيل إنه نحله لنفسه من بعض معاصريه ، وأسنده لنفسه ، فكتب في ذلك مقامة تسمى الفارق بين المصنف والسارق ، وهى جزءان مطبعة النظامية حيدر أباد سنة ١٣٢٠ هـ .

١٤ ــ الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير

فيه لخص السيوطى كتاب النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، وقد طبع بهامش كتاب ابن الأثير .

١٥ ــ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور

وقد طبع بهامشه القرآن الكريم ، مع تنوير المقياس تفسير ابن عباس ــ رضى الله عنهما .

١٦ ــ الرحمة فى الطب والحكمة

هذا الكتاب طوّف كل الأرجاء والأنحاء ، ولم يخل منه بيت أو مكتبة ، وقد نسب إلى السيوطى خطأً حيث إن هناك مخطوط قديمة عثر عليها أحد المبرزين وقد كتب في أولها : تأليف شيخ الأطباء جمال الدين محمد بن إبراهيم المهدوى اليمنى .

وقد ذكر حاجى خليفة أن هذا الكتاب منسوب إلى الشيخ مهدى بن على بن إبراهيم الصبرى المقرى ، اليمنى المتوفي سنة ٨١٤ هـ .

١٧ ـــ شرح شواهد مغنى اللبيب

ويسمى أيضاً شرح (فتح القريب بشواهد مغنى اللبيب من كتب الأعاريب) ـــ لابن هشام ، وهو جزءان .

١٨ ـــ شرح الصدور فى شرح حال الموتى فى القبور

ذكر فيه أصول الموتى فى الحياة البرزخية من الموت إلى وقت البعث والنفخ فى الصور ، وقد عول فى هذا الكتاب على (تذكرة القرطبى) وهو العمدة الذى نهل منه أكثر أصوله .

١٩ ـــ طبقات المفسرين

وعليها شروح لاتينية ، وسيرة الشيخ جلال السيوطى ـــ رحمه الله ـــ .

٢٠ ـــ عقود الجمان فى علم المعانى والبيان

لخص فيه المفتاح فى علوم البلاغة ، ثم وضع شرحاً عليه . كذا فإن له رسالة أخرى فى البلاغة اسمها (فتح الجليل للعبد الذليل) وتحتوى على مائة وثلاثين نوعاً من أنواع البديع فى آية واحدة .

٢١ ـــ زيادات الجامع الصغير .

عُنِىَ بترتيبها الشيخ يوسف النبهانى ـــ رحمه الله ـــ وقد صدر الجزء الأول منها بمصر سنة ١٣٢٠ هـ .

٢٢ ـــ اللآلى المصنوعة في الأحاديث الموضوعة

لخص موضوعات ابن الجوزى ، وقد صدر سلفا فى جزئين وقد طبعت في الهند .

٢٣ ــ لباب النقول فى أسباب النزول

طبع بهامش تفسير الجلالين .

٢٤ ــ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها

وقد جعله خمسين نوعاً ، وقيل إن السيوطى سلخه ونحله لنفسه من مؤلفات الأقدمين ، ولم يضف ــ كد به ــ إليه شيئاً من بنات فكره وجهده واجتهاده الشخصى ، وقد طبع قبل ذلك بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٢ هـ ، ومطبعة السعادة سنة ١٣٠٥ هـ ثم عنى به وحققه بعد ذلك أبو الفضل إبراهيم ، والبجاوى فأخرج أكثر صنبطاً وتحقيقاً .

٢٥ ــ مصباح الزجاجة شرح سنن ابن ماجه

طبع بحاشية سنن ابن ماجة .

٢٦ ــ مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا

خرج فيه أحاديث كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض اليحصبى . طبع فى مصر سنة ١٢٧٦ هـ .

٢٧ ــ معترك الأقران فى إعجاز القرآن

طبع فى مصر بتحقيق على محمد البجاوى ويقع فى ثلاثة مجلدات . وقد اختصر فيه (البرهان) للزركشى .

ثم إن للسيوطى شرحاً على ألفية ابن مالك فى النحو والصرف ، وهو شرح نافع مفيد ، وقد طبع بحاشية الألفية ، ثم أفرد بعد ذلك بالنشر منفصلا عنها .

هذه لمحات خاطفة لبعض مؤلفات السيوطى ، وهى ناطقة ببراعة هذا الرجل وإخلاصه لدينه بالجهاد العلمى والتأليفى . نسأل الله أن يتغمده برحمة ورضوان ، إنه سميع مجيب الدعاء .

بين يدى هذا الكتاب

ورد بقسم المخطوطات بمكتبة جامعة الملك سعود مخطوطة رقم (١٢/٣٢٣٤) بعنوان : (إتمام النعمة فى اختصاص الإسلام بهذه الأمة) للإمام جلال الدين السيوطى ، عدد ورقاتها ١٤ أربع عشرة ورقة .

وقد سبق نشر هذا النص ضمن كتاب (الحاوى للفتاوى) للإمام السيوطى ج ٢ من ص ٢٨٦ إلى ص ٣٠٤ ويقع النص المنشور هذا في سبع عشرة صفحة ونصف من الحجم المتوسط . طبع بدار الكتاب العربى· بيروت – لبنان .

وكتاب « الحاوى للفتاوى » من أكبر كتب السيوطى قيمة ، وأعظمها فائدة ؛ فهو جامع لأعيان وشتى المسائل الحيوية فى الفقه ، وعلوم القرآن ، والحديث ، وعلم الأصول ، والعقائد ، والتصوف وعلم النحو وغيرها . والثابت أن الحاوى قد نشر غير محقق تحقيقاً علمياً فلا الآيات مخرجة ولا الأحاديث كذلك ، ولا الأخبار والآثار قد لقيت أو صادفت شرحاً أو تعقيباً ، وهذا يجعلنا نرجح ويغلب الظن عندنا أن يكون النشر قد تم على مخطوطة الكتاب مباشرة والتى لم يتطرق إليها تهذيب وضبط وتبرئة مما تعانى منه من أغلاط النساخ الشائعة هنا وهناك .

من ثم كان قدرنا – الذى شرفنا به – أن نتعامل مع نص نعتبره مستهدفاً لأول مرة فعمدنا إلى تصويب تصحيفاته والتحريفات التى وقع فيها النساخ والطابعون ، ثم قمنا بتخريج الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وعيون الأخبار والآثار ، وعزوها لأربابها والتعليق عليها .

وقد تناول الإمام السيوطى فى كتابه هذا أموراً دقيقة فصّل وبسط القول فيها ، وناقشها مناقشة صريحة واضحة ، وقد أيدناه فى كثير مما ذهب إليه ، وكذلك فقد خالفناه فى بعض ما انتهى إليه مدعمين رأينا بالحجة القوية والأدلة الراجحة والآيات البينات .

ونرجو ألا يعتبر اعتذارنا عن عدم قبول بعض آرائه قدحاً فى علمه أو انتصافاً منه أو انتقاصاً من شأنه ولكن ذلك زيادة فى التوثيق والتمكين لأن كل أحد مأخوذ منه ، ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ .

فنحن بهذا الشرح والدراسة نكون قد أفرغنا الجهد ، وبذلنا غاية المستطاع وبقى أن ندعو الله ضارعين أن يرحم الإمام السيوطى وأن يجعل فرطاته مغفورة ، وحسناته مقبولة ، وأن يسعنا جميل الاحتمال معه ، إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب الدعاء .

المحققان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم العلامة المجتهد حافظ ووحيد العصر السيوطى رحمه الله تعالى :

الحمد الله وسلام على عباده الذين اصطفى

وبـــعـد

فقد وقع السؤال هل كانت الأمم السابقة يوصفون بأنهم مسلمون أم لا ؟

فأجبت بما نصه :

بعد أن سميته كتاب « **إتمام النعمة فى اختصاص الإسلام بهذه الأمة** »[1]

اختلف العلماء هل يطلق الإسلام على كل دين حق ، أو يختص بهذه الملة الشريفة على قولين . أرجحهما الثاني فبلغنى بعد ذلك أن منكراً أنكر وأنه استدل بأشياء على كون الأمم السابقة يوصفون بالإسلام فعجبت[2] لذلك عجبين :

الأول : من إنكاره ، فإن كان أنكر أن العلماء فى ذلك قولين فهذا دليل على جهله بنصوص العلماء ، وأقوالهم . ومن هذا حاله يقال فى حقه ما قاله الغزالى : « لو سكت من لا يعرف[3] قل الإختلاف[4] ، ومن قصر باعه ، وضاق نظره عن كلام[5] علماء الأمة والاطلاع عليه ، وماله والتكلم فيما لا يدريه والدخول فيما لا يعنيه[6] ، وحق لمثل هذا أن يلزم السكوت وإذا سمع شيئاً لم يسمعه قط ، يعتقد أنه استفاد فائدة جديدة فيعدها نعمة من نعم الله عليه ، وشكراً لله عليها ويدعو لمن أجراها على يده ، وإن

(١) راجع « الحاوى للفتاوى » للإمام السيوطى فقد ضمن فيه هذه الرسالة فصلا كاملاً من ص ٢٨٦ إلى ص ٣٠٤ ط . دار الكتاب العربي — بيروت لبنان .

وما بين المعقوفين ساقط من الحاوى .

(٢) فى الحاوى (فعجبت من ذلك)

(٣) أرادبه الجاهل .

(٤) ليس معنى سكوت الجاهل ، انعدام الاختلاف لأن الاختلاف موجود بين العلماء أنفسهم ، وأسباب الاختلاف معروفة ، ونحن نعرف أن علماء المعتزلة ومتكلميهم اختلفوا كثيراً مع علماء السنة والجماعة ، ولكن السبب الرئيسى فى الاختلاف هو التأويل وصرف غير المصروف عن ظاهره الخ .

(٥) لأن لكلام العلماء مرام ومقاصد لا يفطن إليها إلا من وفرحظه من العلم .

(٦) أي لا يجب أن يقحم نفسه فيما لم يعرف .

كان أنكر ترجيح القول الثانى . فهذا ليس من وظيفته إنما ذلك من وظيفة المجتهدين العالمين بوجوه الترجيحات[١] ومسالك الأدلة[٢] وطرق الحجاج[٣] والنظر ، وإنكاره أيضاً دليل على جهله بنصوص الكتاب والسنة الواردة فى ذلك .

العجب الثانى : من استدلاله فإن الاستدلال إنما يسوغ للمجتهد العالم بطرق الاستدلال ، أما غيره فما له ولذلك ، قال الغزالى فى كتاب التفرقة :

« شرط المقلد أن يسكت ويسكت عنه ؛ لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجج ، ولو كان أهلاً له كان متَّبعًا لا تابعًا ، وإمامًا لا مأمومًا . وإن خاض المقلد فى العجاجة فذلك منه فضول[٤] والمشتغل به « ضارب فى حديد[٥] بارد » وطالب للأحكام فاسد ، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر » عبارة الغزالى .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : شرط المفتى أن يكون مجتهداً وأما المقلد إذا أفتى فهو ناقل ، وحامل فقه ليس بمفتٍ ولا فقيه بل هو كمن ينقل فتوى عن إمام الأئمة ، ثم أطال القول فى ذلك .

والعجب من هذا المنكر استدلاله بآية من القرآن ، وليس هو ممن أتقن علم المعانى[٦] والبيان[٧] الذى لا تعرف بلاغة القرآن وأساليبه إلا به ، وذلك من شروط

---

(١) راجع الترجيحات ، ومقارنات الآدلة فى المستصفى (٣٩٢/٢) .
(٢) راجع مسالك العلل والآدلة فى أصول التشريع الإسلامى ص ١٥٦ .
(٣) راجع طرق الاستدلال فى أصول التشريع السابق ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٤) فضول : سرف غير محتاج إليه . و(شرط المقلد) ساقطة من الحاوى .
(٥) ضارب فى حديد بارد : يقال لمن يجهد نفسه فيما لا طائل من ورائه . مثل قولهم « كم من عامل أكدى » وقولهم « يكثر الحز ويخطىء المفصل » .
(٦) وعلم المعانى هو العلم الذى يدرس أدوات المعانى وغيرها فى بسط وتفصيل ويبين مدلولاتها ، وأوجه استعمالاتها وتصرفها فى المعنى وهذه هي أساس الفهم والفقه لأن عليها وعلى فهمها يتوقف فهم مراد الله سبحانه وتعالى من القرآن الكريم الذى نزل بلغة العرب الفصحاء .
(٧) علم البيان هو ذلك العلم الذى يتناول الصور البيانية المختلفة من التشبيه بأنواعه والاستعارة بأنواعها والمجاز الذى تنضوى تحته الاستعارة ، والكناية ودلالة كل واحد من ذلك على تصوير المراد والمطلوب فى صورة مناسبة تخلع عليه من التوضيح والبيان ما ييسر فهمه واستيعابه .

الاجتهاد والاستنباط بل ولا أتقن (واحداً)[1] من العلوم الخمسة عشر التى لا يجوز لأحد أن يتكم فى القرآن حتى يتقنها ، والعجب من تصديقه لذكر الأدلة ولو أورد عليه أدلة معارضة لما ذكر ، لم يدر كيف يصنع فيها وقد أردت أن أبسط القول فى هذه المسألة نذكر أدلة القول الراجح ، والأجوبة عما عارضها فأقول :

للعلماء فى هذه المسألة قولان مشهوران ، حكاهما غير واحد من الأئمة ، أحداهما : أنه يطلق الإسلام على كل دين حق ولا يخفض بهذه الأمة الملة الشريفة وبهذا أجاب ابن الصلاح ..

والقول الثانى : أن الإسلام خاص بهذه الملة الشريفة ووصف الإسلام خاص بهذه الأمة ، وإن وصفت بالوصف الذى كان يوصف به الأنبياء تشريفاً لها وتكريماً . وهذا القول هو الراجح نقلاً ودليلاً (للذى)[2] عليه من الأدلة الساطعة .

وقد خصّت هذه الأمة من بين سائر الأمم بخصائص لم تكن لأحد سواها ولا للأنبياء فقط من ذلك الوضوء فإنه خصيصة بهذه الأمة و لم يكن أحد من الأمم يتوضأ إلا الأنبياء فقط فى أشياء أخر .

أخرج البيهقى فى دلائل النبوة عن وهب بن منبه قال : إن الله أوحى إلى داود فى الزبور يا داود إنه سيأتى من بعدك نبى اسمه « أحمد »[3] إلى أن قال أمته أمة مرحومة ، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وافترضت عليهم الفرائض التى افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتونى يوم القيامة ، ونورهم مثل نور الأنبياء ، وذلك أنى أفترضت عليهم أن يطهروا لكل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم .

وأخرج الفريابى فى تفسيره عن كعب قال : أعطيت هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطها الأنبياء [كان][4] النبى ﷺ يقال له بلغ ولا حَرج ، وأنت شهيد على

(١) بالأصل (واحد) وهو تحريف من الناسخ .
(٢) بالأصل (للذ) وهو تحريف من الناسخ وفى الحاوى (لما قام) .
(٣) وردت بالأصل (أحم) وهذا خطأ من الناسخ .
(٤) كان ساقطة من الأصل ونقلناها من الحاوى .

قومك ، وادع أجبك ، وقال لهذه الأمة « ما جعل عليكم فى الدين من حرج[1] » وقال « لتكونوا شهداء على الناس »[2] وقال : « ادعونى أستجب لكم »[3] .

وأخرج أبو نعيم والبيهقى كلاهما فى دلائل النبوة عن كعب قال فى كتاب الله : « إن لكل نبى يوم القيامة نورين ، ولكل من اتبعه نور ، ولمحمد ﷺ فى كل شعرة فى رأسه ووجهه نور ، ولكل من اتبعه نوران ، (كذا) يمشى بهما كنور الأنبياء »[4] .

وخصائص هذه الأمة كثيرة وفيما ذكرناه[5] كفاية .

ذكر الأدلة للقول الراجح :

الدليل الأول : قوله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبلُ وفى هذا »[6] .

اختلف فى ضمير « هو » هل هو لإبراهيم أو لله ! على قولين سيذكران [إن شاء الله] وقوله : « سماكم المسلمين » لو لم يكن ذاك خاصاً بهم كالذى ذكر قبله لم يكن لتخصيصه ولا لاقترانه بما قبله معنى ، وهذا هو الذى فهمه السلف من الآية .

أخبرنى الشيخ جلال الدين ابن الملقن[7] مشافهة عن أبى الفرج العربى[8] ، أنبأنا يونس بن إبراهيم عن أبى الحسن بن المغير ، أخبرنا الحافظ أبو الفاضل بن ناصر إجازة

---

(١) الآية (ما جعل عليكم فى الدين من حرج) الحج (٢٢/٧٨) راجع تفسير الشيخ الصابونى (١٧/٨٩٦) .

(٢) البقرة (٢/١٤٣) .
أي لتكونوا شهداء على الأمم المتقدمة لأنبيائهم . راجع أيضاً القرطبى (٢/١٥٣) وجامع البيان للطبرى (٣/١٤٢) .

(٣) غافر (٤٠/٦٠) .
راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٢٧/٨٠) ومختصر ابن بكثير (٣/٢٤٩) .

(٤) كذا ورد بالأصل .

(٥) أوردناه (فى الحاوى) .

(٦) الحج (٢٢/٧٨) .

(٧) كذا ورد بالأصل .

(٨) فى الحاوى (العزى) .

عن أبى القاسم بن منده[1] أخبرنا [2] أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره أخبرنا أبو يزيد القراطيسى فيما كتب إلى ، أخبرنا أصبغ : سمعت ابن يزيد يقول فى قول الله تعالى : « هو سماكم المسليمن من قبل »[3] قال : لم يذكر الله بالإسلام غير هذه الأمة ولم نسمع بأمة ذكرت بالإسلام غيرها » هذا إسناد صحيح إلى ابن زيد وهو أحد أئمة السلف فى التفسير وطبقته فى اتباع التابعين .

وأخرج ابن المنذر[4] ، وابن أبي حاتم من طريق عطاء عن ابن عباس فى قوله : « هو سماكم المسلمين من قبل » قال : الله عز وجل سماكم المسلمين . وأخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : « هو سماكم المسلمين » قال : الله عز وجل سماكم المسلمين من قبل الكتاب كلها ومن قبل الذكر ، « وفى هذا » قال : القرآن .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : « هو سماكم المسلمين من قبلُ » قال : التوراه والإنجيل[5] ، « وفى هذا » القرآن أى فى كتابكم .

وأخرج عبيد[6] بن حميد ، وابن المنذر عن سفيان بن عيينة فى قوله : « وهو سماكم المسلمين من قبلُ » قال : التوراه والإنجيل ، « وفي هذا » قال : القرآن .

وذكر ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله : « هو سماكم المسلمين من قبل » قال : يعني في الذكر فى أم الكتاب ، « وفى هذا » قال : فى القرآن .

فهذه نصوص أئمة السلف المفسرين من الصحابة والتابعين وأتباعهم أن الله سمى هذه الأمة المسلمين فى أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ ، وفى التوراة والإنجيل وسائر

---

(١) ورد بالأصل (منره) وهو تحريف من الناسخ .

(٢) أخبرنا مكرة فى الأصل [وهى ساقطة من الحاوى] .

(٣) الحج (٧٨/٢٢)

(٤) هو ابن المنذر صاحب كتاب الإجماع ، المتوفى سنة ٣١٨هـ . راجع ترجمته فى وفيات الاعيان (٢٠٨/٤) وطبقات الشافعية للسبكى (١٠٢/٣) وتذكرة الحفاظ (٧٨٢/٣) وما بعدها .

(٥) التوراة والإنجيل : ساقطة من الحاوى .

(٦) وردت بالمخطوطة (عبيد) هكذا وفى الحاوى (عبد)

كتبه المنزلة وفى القرآن ، وأنه اختصهم بهذا الاسم من دون سائر الأمم[1] ، وسيأتى الأثر عن بعض كتب اللغة[2] فى تسمية هذه الأمة بهذا الأسم .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ ، قال : هو إبراهيم ألا ترى إلى قوله : ﴿ واجعلنا مُسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ .

الدليل الثانى : قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ دعا بذلك لنفسه ولولده وهما نبيان ، ثم دعا به لأمة من ذريته وهي هذه الأمة ولهذا قال عقب ذلك ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم[3] ﴾ وهو النبى ﷺ بالإجماع ، فأجاب الله دعاءه بالأمرين فبعث النبى ﷺ فيهم وبتسميتهم مسلمين . ولهذا أشار تعالى إلى أن إبراهيم هو السبب فى ذلك بقوله : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ كما تقدم عن ابن زيد .

أخرج ابن أبي حاتم عن سلام بن أبي مطيع فى قوله : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ قال : كانا مسلمَيْن ولكن سألاه الثبات[4] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن [أنس][5] فى قوله : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال : يعنيان العرب ، وفى قوله : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم[6] ﴾ قال هو محمد ﷺ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ قال : يعني أمة محمد فقيل له : قد استجيب لك وهو كائن فى آخر الزمان .

---

(١) أى الأمم السابقة عليهم ، والكتاب مكررة فى المخطوطة .
(٢) وردت بالمخطوطة (اليه) وهذا تحريف من الناسخ .
(٣) البقرة (١٢٨/٢) .
راجع جامع البيان للطبرى (٧٩/٣) .
(٤) أى الثبات على الإسلام .
(٥) فى الحاوى [السدى] عوضا عن أنس .
(٦) البقرة (١٢٩/٢) .
رسولا منهم : أي من بنى جلدتهم يعرفهم ، ويعرفونه ، فلا هو غريب عنهم ، ولا هم غرباء عنه .

الدليل الثالث : قوله تعالى : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » هو ظاهر فى الاختصاص بهم ، فإن قلت : لا يلزم ، قلت : ذلك لجهلك بقواعد المعاني ، فإن تقديم « لكم » يستلزمه ويفيد أنه لم يرضه لغيرهم كما قال صاحب الكشاف[1] في قوله تعالى : وبالآخرة هم يوقنون[2] » أن تقديم هم تعريض بأهل الكتاب ، وأنهم لا يوقنون بالآخرة وكما قال الأصبهانى « وما هم بخارجين من النار[3] » أن تقديم هم يفيد أن غيرهم يخرج منها وهم الموحدون .

الدليل الرابع : قوله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا[4] » وبهذه الآية استدل من قال : إن الإسلام كان من وصف الأنبياء دون أممهم .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة وابن جرير[5] فى قوله : « يحكم بها النبيون ... الآية قال : لا يحكم بها محمد ﷺ ومن قبله من الأنبياء والربانيين والأحبار .. بما فيها من الحق ليهود .

الدليل الخامس : ما أخرجه إسحاق بن راهويه[6] فى مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه عن مكحول قال : كان لعمر على رجل حق فأتاه يطلبه فقال عمر : لا والذى اصطفى محمدا[7] على البشر لا أفارقك فقال اليهودي : والله ما اصطفى الله محمداً على البشر ، فلطمه عمر ، فأتى اليهودى النبي ﷺ ، فأخبره ، فقال النبى ﷺ « بل يايهودى ، آدم صفي الله ، وإبراهيم خليل الله ، وموسى نجي الله ، وعيسى روح الله ، وأنا حبيب الله ، بل يايهودى تسمى الله باسمين سمى بهما أمتى ، هو السلام وسمى به أمتى المسلمين ، وهو المؤمن وسمى به أمتى المؤمنين ، بل يايهودى » .

(١) راجع الكشاف (١٣٧/١) ط . دار المعرفة
(٢) راجع تفسير الآية فى القرطبى (١٨٢/١) .
(٣) البقرة (١٦٧/٢)
(٤) المائدة (٤٤/٥)
(٥) وردت بالحاوى (جريج) وهذا تحريف من الناسخ .
(٦) وردت بالمخطوطة (راهن) والصحيح ما أوردنا .
(٧) وردت بالمخطوطة (محمد) وهو خطأ تحريف من الناسخ ، والصحيح ما ذكرنا .

[طلبتم يوما ذخرا لنا اليوم ولكم غد ، وبعد غد للنصارى بل يايهودى][1] .

أنتم الأولون ونحن الآخرون السابقون يوم القيامة .

بل إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها وهي محرمة على الأمم حتى تدخلها أمتى » . هذا الحديث صريح فى اختصاص أمته بالإسلام ، كما أن جميع ما فيه خصائص لها ولو كانت الأمم مشاركة لها فى ذلك لم يحسن إيرادها فى معرض التفضيل إذا كان اليهودى يقول ونحن أيضاً كذلك وسائر الأمم .

الدليل السادس : ما أخرجه البخارى فى تاريخه والنسائى فى سننه وابن مردويه فى تفسيره عند قوله : « هو سماكم المسلمين » عن الحارث الأشعر عن رسول الله عليه وسلم قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثاة جهنم[2] . قال رجل : يارسول الله وإن صلى وصام ؟ قال : نعم ، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله » .

السابع : ما أخرجه ابن جرير فى تفسيره عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول لما نزلت هذه الآية « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا[3] » (ونحن نحكم على اليهود وعلى من سواهم من أهل الأديان) هذا صريح فى أنه ﷺ فهم اختصاص الإسلام بدينه .

الدليل الثامن : ما أخرجه ابن جرير عند قوله : « ورضيت لكم الإسلام ديناً »[4] عن قتادة قال : ذكر لنا أنه يمثل لأهل كل دين دينهم يوم القيامة فأما[5] الإيمان فيبشر أصحابه وأهله ، ويعدهم الخير حتى يجيء الإسلام فيقول : رب أنت السلام وأنا الإسلام » هذا الوقوف له حكم الرفع ؛ لأن مثله لا يقال من قبل الرأي ، وهو صريح فى أن الإسلام يختص بهذا الدين ، ولا يطلق على كل دين حق كما ترى حيث فرق بينه وبين الإيمان المتعلق بأهل الأديان ، ولهذا أورده ابن جرير عند هذه الآية الدالة

(١) ما بين المعقوفين ساقط من المخطوط ، وأكملناه من الحاوى .

(٢) لأن دعوى الجاهلية تلك قد أبطلها الإسلام .

(٣) المائدة (٥/٤٤)

(٤) المائدة (٥/٣)

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من المخطوط ، وأكملناه من الحاوى .

على اختصاصه بهذه الأمة ، وفيه تقوية للحديث السابق هو السلام ، وسمى أمتى المسلمين .

الدليل التاسع : ما أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة عن وهب ابن منبه قال : أوحى إليه إلى أشعيا[١] ، أنى باعث نبياً أمياً مولده بمكه ومهاجره طيبة عبدى المتوكل المصطفى إلى أن قال : « والإسلام ملته وأحمد اسمه » فهذا صريح فى اختصاص الإسلام بملته وهذا الأثر أورده صاحب الشفاء[٢] فالعجب ممن قرأه وسمعه و لم يتفطن له[٣] .

وقد أخرج ابن أبى[٤] حاتم عن أبي العالية قال : بعث محمد ﷺ[٥] بالإسلام وهو ملة إبراهيم وملة اليهود والنصارى اليهودية والنصرانية .

الدليل العاشر : ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله « وما جعل عليكم في الدين من حرج »[٦] هو توسعة الإسلام ما جعل الله من التوبة والكفارات .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له : ما علينا فى الدين من حرج أن نسرها أو ترنى قال : بلى[٧] ، قيل فما معنى « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » قال : الإصر[٨] الذى كان على بني إسرائيل وضع عنكم ، هذا صريح فى أن الإسلام هو هذه الشريعة الواسعة بخلاف دين اليهودية والنصرانية المشتمل على الإصر والضيق فإنه لا يسمى إسلاماً .

الدليل الحادى عشر . ما أخرجه أحمد عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالحنيفية السمحة »[٩] .

(١) هو أشعياء عليه السلام . راجع قصص الأنبياء لابن كثير بتحقيق السيد الجميلى
(٢) بياض بالأصل ، ووردت كذا فى الحاوى
(٣) لم يتفطن له : لم يتدبره
(٤) ما بين المعقوفين من وضعنا ، وهو أيضاً فى الحاوى .
(٥) كذا ورد بالأصل بزيادة (وسلم)
(٦) الحج (٢٢/٧٨) والآية بغير الواو فى الحاوى .
(٧) تأتى بلى للإجابة بالإيجاب عن السؤال المنفى .
(٨) الإصر : الذنب .
(٩) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/٢٦٦)

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : قيل يارسول الله أي الأديان أحب إلى الله ؟ قال الحنيفية السمحة » والحنيفية السمحة هى الإسلام . كما أخرجه ابن المنذر عن أنس قال : الحنيف المسلم .

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان في تفسيره فى آخر سورة الأنعام عن عبد الرحمن بن أبزى أن النبى ﷺ قال : « أصبحت على فطرة الإسلام وكلمة الاخلاص وعلى ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » فقوله حنيفاً مسلماً تفسيره لقوله : « وعلى ملة إبراهيم » فعلم بمجموع ذلك اختصاص الإسلام بملة النبى ﷺ التى بعث بها موافقاً لملة إبراهيم .

الدليل الثانى عشر : قوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »[1] هذه الآية دالة على أن شريعة موسى تسمى اليهودية ، وشريعة عيسى تسمى النصرانية ، وشريعة إبراهيم تسمى الحنيفية وفيها بعث النبى ﷺ وهي صريحة فى أن اليهود والنصارى لم يدعوا قط أن شريعتهم تسمى الإسلام ولا أن أحداً[2] منهم يسمى مسلماً .

الدليل الثالث عشر : قوله تعالى : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[3] هذه الآية كالتى قبلها فى الدلالة على ماذكرت ، والصراحة فى أنهم لم يدعوا اسم الإسلام لهم قط .

الدليل الرابع عشر : قوله تعالى : « ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون »[4] .

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبى ﷺ دعا يهود أهل المدينة وهم الذين حاجوا فى إبراهيم وزعموا أنه مات يهودياً فأكذبهم فقال ياأهل

(١) آل عمران (٣/٦٧)
(٢) وردت بالمخطوطة (أحد) وهو خطأ تحريف من الناسخ .
(٣) البقرة (٢/١٣٥) والحنيف هو المستقيم .
(٤) آل عمران (٣/٦٥)

الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وتزعمون أنه[1] كان يهودياً أو نصرانياً وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، فكانت اليهودية بعد التوراة وكانت النصرانية بعد الإنجيل .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس فى الآية قال : قالت النصارى : كان إبراهيم نصرانياً وقالت اليهود كان يهودياً ، فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل إنما أنزلت من بعده وبعده كانت اليهودية والنصرانية ، هذا صريح فى أن شريعة التوراة تسمى يهودية وشريعة الإنجيل تسمى نصرانية ولا يسمى واحد منهما[2] اسلاماً .

الدليل الخامس عشر : قوله تعالى : « وقل للذين أوتوا الكتاب[3] والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا »[4] هذه الآية دالة على أن الإسلام خاص بهذا الدين وإلا لكان أهل الكتاب يقولون : إذا قيل لهم أسلمتم ، نحن مسلمون وديننا الإسلام .

الدليل السادس عشر : ما أخرجه الشيخان فى حديث بدء الوحي من قول الراوى[5] فى حق ورقة ، وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية ، فلو كان الدين الحق من ملة عيسى يسمى إسلاماً وصاحبه مسلم لقال وكان أمراً أسلم فى الجاهلية .

الدليل السابع عشر : ما أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ابن حيان عن عبدالله ابن مسعود قال : تسمَّت اليهود باليهودية بكلمة قالها موسى : « إنا هدنا إليك »[6] وتسمت النصارى بالنصرانية بكلمة قالها عيسى « من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله »[7] فتسموا بالنصرانية ، هذا صريح فى أنهم سموا بهذين الإسمين من عهود نبيهما ، ولم يسموا بالمسلمين قط ولا نقل ذلك عنهم ، وكيف يدعى لهم وصف شريف لم يدعوه هم لأنفسهم .

---

(١) (أنه) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى الحاوى

(٢) وردت بالأصل المخطوط (واحد منهم) وهذا خطأ تحريف من الناسخ . والتصويب من الحاوى .

(٣) وردت بالمخطوطة (الكتب) وهو تحريف خطير من الناسخ .

(٤) آل عمران (٣/٢٠)

(٥) فى المخطوط (الراو) بغير ياء وهذا تحريف من الناسخ .

(٦) الأعراف (٧/١٥٦)

(٧) الصف (٦١/١٤)

راجع تفسير القرطبى (١٨/٩٠) والطبرى فى التفسير (٢٨/٦٠)

الدليل الثامن عشر : ما أخرجه أبو داود[1] والنسائي وابن حبان فى صحيحه وغيرهم عن ابن عباس قال : كانت المرأة من الأنصار مقلاتا لا يكاد يعيش لها ولد ، فكانت تجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما جاء الإسلام الحديث . هذا صريح فى أن دين موسى الحق كان يسمى يهودية لا إسلاماً .

الدليل التاسع عشر : ما أخرجه مسلم وغيره عن أبي موسى الأشعري أن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم يموت[2] ولا يؤمن بالذى أرسلت إلا كان من أصحاب النار » سمى ﷺ من أهل الكتاب يهودياً أو نصرانياً و لم يطلق على أحد منهم لفظ الإسلام فى أحاديث كثيرة لا تحصى .

الدليل العشرون : إطباق ألسنة الخلف كلهم معاً[3] الصحابة والتابعين وأتباعهم والمجتهدين والفقهاء والعلماء على اختلاف فنونهم والمسلمين بأسرهم حتى النساء فى قصر بيوتهن والأطفال واليهود والنصارى والمجوس وسائر الفرق حتى الحيوانات ، والشجر والحجر فى آخر الزمان على تسمية من كان على دين موسى يهودياً ومن كان على دين عيسى نصرانياً ومن كان على دين نبينا ﷺ مسلماً لا يمترى[4] فى ذلك كبير ولا صغير ، ولا عالم ، ولا جاهل ، ولا مسلم ، ولا كافر ، فترى هذا الإطباق ناشيء عن لا شيء ومبنى[5] عن فساد كلا بل هو الحق المطابق الواقع والله الهادي للصواب .

ذكر الادلة التى احتج بها للقول الآخر استدلالى

قوله تعالى : « فأخر جنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » . والجواب على ذلك ما حققه صاحب القول الراجح أن هذا الوصف كان

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنن ، والمقلات هى المرأة التى يموت ولدها صغيراً .

(٢) يموت ساقطة من الأصل وهى ثابتة فى الحاوى .

(٣) وردت بالمخطوط (معاً)

(٤) يمترى : يشك ، من الامتراء .

(٥) بياض بأصل المخطوطة وزدنا مبنى من الحاوى .

يطلق فيما تقدم على الأنبياء فقط والبيت كذا[1] المذكور عليه السلام و لم يكن فيه مسلم إلا هو وبناته ، وهو نبي فصح إطلاقه عليه بالأصالة وأطلق على بناته إما على سبيل التغليب ، وإما على سبيل التبعية إذ لامانع من تخصيص أولاد الأنبياء بخصائص لا يشاركهم فيها بقية الأمة كما اختص السيد ابراهيم بن نبينا ﷺ بأنه لو عاش لكان نبياً[2] وكما اختصت فاطمة بأنها لا يتزوج[3] عليها وكما اختصت أيضاً بأنها تمكث فى المسجد مع الحيض والجنابة ، وكذلك أزواج النبي ﷺ اختصصن[4] بذلك ، وكذلك على بن أبى طالب والحسن والحسين اختصوا[5] بجواز المكث فى المسجد مع الجنابة كل ذلك على سبيل التبعية للنبى ﷺ فكذلك لا مانع من أن يوصف أولاد الأنبياء بما يوصف به آباؤهم تبعاً لهم وكذلك قوله تعالى عن أولاد يعقوب عليه السلام « قالوا نعبد إلهك[6] وإله آبائك ابراهيم وإسماعيل ... إلى قوله « ونحن له مسلمون »[7] إما على سبيل التبعية له إن لم يكونوا أنبياء مع أن بينهم يوسف وهو نبي قطعاً فلعله[8] هو الذي تولى الجواب فأخبر عن نفسه بالأصالة وأدرج إخوته معه على سبيل التغليب ، بأنه خاطبهم وفيه أخوه هارون ويوشع وهما نبيان فأدرج بقية القوم فى الوصف تغليباً .

أو يحمل على أن المراد إن كنتم منقادين لى فيما آمركم به وهذه الآيات أوردت عَلَيَّ مرة فى درس التفسير فأجبت فيها بذلك ولم أر أحداً[9] أستند إليها .

نعم رأيت ابن الصلاح استند إلى قوله : « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون »[10] وهذا

---

(١) تكرر (البيت) فى المخطوطة .

(٢) هذا الحديث موضوع ، راجع تذكرة الموضوعات (٩٩) وكشف الخفاء (١٥٦/٢) وتهذيب الأسماء واللغات للنووى (١٠٣/١) وأسنى المطالب (١١٧٧) وقد ضعفه المؤلف فى الجامع الصغير (١٣٠/٢) .

(٣) هذا الخبر غير مدعوم بالأدلة والأسانيد الصحيحة ، وإن كان مستقيم المعنى والدلالة .

(٤) بالأصل (اختصوا) وهو خطأ فاحش من الناسخ . وهى نفسها وردت بالحاوى .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، وهو ثابت من الحاوى .

(٦) البقرة (١٣٣/٢)

(٧) فهذا الإسلام كان صفة لهم .

(٨) بياض بالمخطوطة وما بين المعقوفين زدناه من الحاوى .

(٩) بالمخطوطة (أحد) وهو تحريف من الناسخ .

(١٠) البقرة (١٣٢/٢)

من قول إبراهيم لبنيه ويعقوب لبنيه وفى بنى كل نبى[1] ، فلا يحسن الاستدلال بهم على غيرهم مع إنه لايلزم منه طرده فى أمة موسى وعيسى ليعلم[2] من أن ملة إبراهيم تسمى الإسلام وبها بعث النبى ﷺ وكان أولاد إبراهيم ويعقوب عليها ، فصح أن يخاطبوا بذلك ولا يتعدى إلى من ملته اليهودية والنصرانية .

وقد رأيت من أورد على ابن الصلاح فى اختياره ذلك قوله تعالى : « ورضيت لكم الإسلام ديناً »[3] وقال فما[4] فائدة ذلك إذا كان كل منهم يسمى مسلماً ؟ والتحقيق الذي قامت عليه الأدلة مارجحناه من الخصوصية بالنسبة إلى الاسم وأن كل ماورد من إطلاق ذلك فيمن تقدم فإنما أطلق[5] على نبى أو ولد نبى تبعاً له أو جماعة فيهم نبى غلب لشرفه .

ومن ذلك قوله تعالى : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون »[6] فإن الحواريين فيهم أنبياء فيهم الثلاثة المذكورون فى قوله تعالى : « إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم أثنين فكذبوها فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون » نص العلماء مع انهم من حوارى[7] عيسى وأحد قولي العلماء أن الثلاثة أنبياء ، ويرشحه ذكر الوحى إليهم[8] .

وقال الراغب فى قوله : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا »[9] : أي الذين انقادوا من الأنبياء الذين ليسوا من أولى العزم لا أولى العزم الذين يهدون بأمر الله ويأتون بالشرائع .. انتهى

---

(١) بالأصل (أنبياء) وهو تحريف من الناسخ .
(٢) بالأصل (لا علم) وهو تحريف خطأ من الناسخ وفى الحاوى (لما علم) .
(٣) المائدة (٥/٣)
(٤) وردت بالأصل (فيما) وهذا خطأ تحريف من الناسخ . وما أوردناه ثابت فى الحاوى .
(٥) بالمخطوطة (إطلاق) وهذا خطأ من الناسخ . والتصحيح من الحاوى .
(٦) المائدة (٥/١١١)
(٧) بالأصل (حوار) والصحيح ما أوردنا .
(٨) لأنه لا يوحى إلا للأنبياء .
(٩) المائدة (٥/٤٤)

فصـــل : قال قائل : من الأدلة على ذلك قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ... الآية[1] » وهذه من أعجب العجب فإن المراد من الآية استواء الشرائع كلها فى أصل التوحيد وليس الإسلام اسماً للتوحيد فقط ، بل بمجموع الشريعة بفروعها وأعمالها ، فالمستدل بهذه الآية إما أن يزعم أن الإسلام لا يطلق على الأعمال أو يزعم استواء الشرائع فى الفروع وكلاهما جهل من قائلة ، ثم لو قدر الاستواء لم يصلح الاستدلال لأن محل النزاع فى أمر لفظى . وهو أنه هل تسمى تلك الشرائع إسلاماً[2] أولاً تسمى مع قطع النظر عن اتفاقها فى الفروع واختلافها وذلك راجع إلى قاعدة أن الإطلاق متوقف على الورود . وذلك ورد به الحديث والأثر أنه لا يطلق على شيء من الشرائع إسلاماً وإن كان حقاً كما أنه لا يطلق على شيء عرض الكتب السابقة قرآنا وإن كان فيها معنى الضم والجمع ، وكما أنه لا يطلق على شيء من أواخر آي القرآن سجع بل فواصل وقوفاً مع ماورد . كما قال النووى : إنه لا يقال فى حق النبى ﷺ عز وجل وإن كان عزيزاً جليلاً ولا فى حق غير الأنبياء ﷺ وإن كانت الصلاة بمعنى الرحمة كل ذلك وقوفاً مع الورود .

وقد تقدم عن ابن زيد أنه قال : لم يذكر الله بالإسلام غير هذه الأمة ، وابن زيد أحد أئمة السلف العالمين بالقرآن والتفسير ، أفتراه غفل عن هذه الآيات التى استدل بها قائل هذه المقالة ؟ كلا لم يغفل عنها بل علم تأويلاها وأطلع[3] على مدرك[4] الجواب عنها فنفى وهو آمن من إيرادها عليه ، وأعظم من ذلك رسول الله ﷺ أعلم خلق الله بكتاب الله حيث نص باختصاص الإسلام بأمته وذكر ذلك لليهودى مبينا بأنه تمييز أمته على سائر الأمم ، فلولا أنه ﷺ فهم ذلك من الآيات الدالة عليه وفهم أن الآى الآخر لا تعارضها لم يقل ذلك . ولو كان يطلق على الأمم السابقة مسلمين[5] لكان اليهودى يقال له وأمة موسى أيضاً مسلمون فلا مزية لأمتك عليهم .

---

(١) الشورى (١٣/٤٢) قال الشيخ الصاوى : خص هؤلاء الأنبياء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء ، وألو العزم . راجع حاشيته على الجلالين (٣٢/٤)

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من المخطوطة ، وقد زدناه من الحاوى .

(٣) بالمخطوطة (قرآن) والصحيح ما أوردناه .

والسابقة ساقطة من المخطوطة زدناها من الحاوى .

(٤) بالأصل (مدر) وهو تحريف .

(٥) بالمخطوطة (مسلمون) وهذا تحريف من الناسخ .

ومن العجب ممن يستدل بآية القرآن وهو غير متضلع بالحديث ، ومن المعلوم أن في القرآن المجمل والمفهم والمتحمل وكل من الثلاثة محتاج إلى السنة تبينه[1] ، وتعينه وتوضح المراد منه . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنه سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن[2] أعلم بكتاب الله .

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس أن على بن أبى طالب أرسله إلى الخوارج فقال : إذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجوهم[3] بالقرآن فإنه ذو وجوه ، ولكن خاصمهم بالسنة ، فقال له ابن عباس يأمير المؤمنين : أنا أعلم بكتاب الله منهم . فى بيوتنا نزل ، قال : صدقت ، ولكن القرآن حمال ذو وجوه . نقول ويقولون ولكن حاجهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصا[4] ، فخرج إليهم فحاجهم بالسنن فلم تبق بأيديهم حجة .

وقال يحيى بن أبى كثير : السنة قاضية على القرآن [فهى][5] مفسرة .

وقال الإمام فخر الدين أنزل القرآن على [قسمين][6] محكم ومتشابه ليكون مجال لكل مذهب فينظر فيه جميع أرباب المذاهب طمعاً أن يجد كل فيه ما يريد من مذهبه ، وينصر مقالته فيجتهدون فى التأويل فيه ، فإذا بالغوا فى ذلك صارت المحكمات مفسرات للمتشابهات[7] وبهذا الطريق فتخلص المبطل من باطله ويتصل إلى الحق ، ولو كان القرآن كله محكماً لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد وكان بصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب ، وذلك مما ينفر أرباب سائر المذاهب عن قبوله .

وعن النظر فيه ، قال : وأيضاً إذا كان القرآن مشتملاً على المتشابه افتقر إلى العلم بطريق التأويلات وترجيح بعضها على بعض ، وافتقر فى تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو[8] والمعانى والبيان وأصول الفقه وغير ذلك وفى ذلك مزيد

---

(١) من التبيين ، وهو الشرح والتفصيل .
(٢) لأن السنة شارحة وموضحة ومبينة لكتاب الله .
(٣) لا تحاجوهم : لا تجادلوهم .
(٤) لن يجدوا عنها محيصا : أى لن يجدوا عنها مهربا .
(٥) وردت بالمخطوطة (مهد) وهذا تحريف .
(٦) بياض بالأصل . وزيدت من الحاوى .
(٧) وردت بالمخطوطة (للتشبهات) وهو تحريف من الناسخ .
(٨) وردت بالمخطوطة (والنحوى) وهذا تحريف من الناسخ .

مشقة فى الوصول إلى المراد منه ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب ، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يحتج إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة فلم يكن فيه مشقة توجب مزيد الثواب وكان يستوى فى إدراك الحق منه الخواص والعوام هذا كلام فخر الدين .

قلت : فإذا كان كذلك فكيف يحل لمن لم يتقن واحداً من العلوم المشترطة للمتكلم فى القرآن وعدتها خمسة عشر علماً أن يتجرأ على الاستدلال بآيات القرآن على حكم من الأحكام ، أو أمر من الأمر جاهداً بطرق الاستدلال عاجزاً عن تحصيل شروطه ومثل هذا هو الذى ورد فيه الحديث « (من) قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[١] وفى رواية « فقد كفر » .

والعجب أنه يعمد إلى الاستدلال بآيات مع قطع النظر عن معارضها[٢] وعن النظر فيها هل هى مصروفة[٣] عن ظاهرها أو لا وقد أوجب أهل الأصول على المجتهد المستدل بآية أو حديث يبحث عن المعارض ، وجوابه وعن الذى استدل به هل معه قرينة تصرفه عن ظاهره ، وهذا (نطح)[٤] ، مع (الناطحين)[٥] من غير تأمل ولا مراعاة لشرط من الشروط ، فلو استحيا هذا الرجل من الله لوقف عند مرتبته وهى التقليد وترك الاستدلال لأهله .

قال الله تعالى : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »[٦] وأولوا الأمر المجتهدون ، كما قال ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ومجاهد وأبو

---

(١) لأن القائل بغير العلم ضال مضل يجب أن يستتاب ويرجع عما هو عليه .

(٢) لأن هناك كثيراً من الآيات تأتى بأحكام عامة وبالبحث والاستقصاء نجد آيات أخرى مخصصة لهذه العامة فمن أخذ بالعام من غير الرجوع إلى الخاص ضل وزاغ وحاد فلابد من مقارنة العام بالخاص ، ثم المطلق بالمقيد إذ أن الحنفية قد حملوا المطلق على المقيد ووافقهم على ذلك طائفة من الشافعية وكثير من المحققين .

(٣) وردت بالأصل (معروفة) والصحيح ماذكرنا .

(٤) فى الأصل (قطح) وهذا خطأ تحريف .

(٥) فى الأصل (القاطحين) وهو تحريف أيضاً من الناسخ . والقاعدة العامة التى عليها الأصوليون والفقهاء أن الأصل هو الظاهر ، ولا يجوز الصرف عن الظاهر إلى غيره إلا إذا استحال هذا الظاهر ، أو وجد ما يعارض هذا الظاهر من أصول الدين الجلية ، بل لابد للصرف عن الظاهر من قرينة ودلالة توضح ذلك ، وهذا التقدير لا يمكن أن يفطن إليه أوزاع الناس ودهماؤهم بل هذا خاص للعلماء .

(٦) النساء (٨٣/٤)

العالية والضحاك وغيرهم : وأولوا الأمر هم أولوا الفقه وأولوا الخير فقط ومجاهد : هم الفقهاء والعلماء ، وأخرج عن أبي العالية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(١) قال : هم أهل العلم . ألا ترى أنه يقول : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »(٢) ومعلوم أن لفظ الفقهاء والعلماء إنما يطلق على المجتهدين ، وأما المقلد فلا يسمى فقيهاً ولا عالماً كما نص عليه أهل الفقه والأصول . وامتناع إطلاق الفقيه والعالم على المقلد كامتناع إطلاق المسلم على اليهودى والنصرانى ، خصوصية من الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألونه .

فصـــل : ثم ظهر لي دليل حادى وعشرون : وهو ما أخرجه أحمد(٣) وغيره من عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إنى مررت بأخ لي من قريظة وكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك فتغير وجه رسول الله ﷺ فقال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، فسري عن رسول الله ﷺ وقال : « والذى نفس ، محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم ، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » هذا الحديث يدل على أن شريعة التوراة لا تسمى إسلاماً لأن عمر لما أغضب النبى ﷺ من كتابته جوامع من التوراة بادر إلى قوله : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً لسري نفسه من الرضى بشريعة التوراة واتباعها فلما قال ذلك سري(٤) عن النبى ﷺ .

فحصول المقصودين من عمر وهو اقتصاره على شريعة الإسلام وإعراضه على شريعة التوراة .

دليل ثان وعشرون ، وهو قوله ﷺ لجبريل وقد سأله : ما الإسلام ؟ فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، ونصوم رمضان ونحج البيت » زاد في رواية وتغتسل من الجنابة هذا صريح في أن الإسلام مجموع هذه الأعمال وهذا المجموع مخصوص بهذه الأمة فإن اللام

---

(١) النساء (٤ / ٨٣)

(٢) النساء (٤ / ٥٩)

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣ / ٤٧١)

(٤) سرى عنه : فرج عنه .

فى الصلاة المكتوبة للعهد وهي الخمس ولم تكتب الخمس إلا على هذه الأمة ، وصوم رمضان من خصائص هذه الأمة كما أخرجه ابن جرير عن عطاء . والحج ، والغسل من الجنابة من خصائصها أيضاً كما تقدم فى أثر وهب ، فدل على أن من لم يعمل هذه الأعمال لا يسمى مسلماً ، والأمم السابقة لم تعملها فلا يسمون مسلمين .

تحقيق : فإن قلت : ما تحرير المعنى في التخصيص بالتسمية ؟

قلت : وفيه معان : أحدها أن الإسلام اسم الشريعة السهلة كما قال ﷺ : « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال : « أحب الأديان إلى الله الحنيفة السمحة » وقال ابن عباس في قوله تعالى « ما جعل عليكم فى الدين من حرج »[1] : توسعة الإسلام ووضع الإصر الذى كان على بنى إسرائيل ، وشريعة اليهود والنصارى لا سهولة فيها ، بل هى فيها فى غاية المشقة والثقل كما هو معلوم من قوله تعالى : « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا »[2] وغير ذلك ، فلذلك لا تسمى إسلاماً .

[المعنى][3] الثانى : أن الإسلام اسم للشرعة المشتملة على فواضل العبادات من الجهاد والحج والوضوء والغسل من الجنابة ، ونحو ذلك ، وذاك خاص بهذه الأمة لم يكتب على غيرها من الأمم ، وإنما كتب على الأنبياء فقط كما تقدم فى أثر وهب (أعطيتم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء وافترضت عليكم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل فلذلك سميّت هذه الأمة مسلمين) . كما سمى بذلك الأنبياء والرسل ولم يسمّ غيرهم من الأمم) .

ويؤيد هذا المعنى ما أخرجه أبو يعلى من حديث علىّ مرفوعاً « الإسلام ثمانية أسهم شهادة أن لا إله إلا الله والصلاة والزكاة والحج والجهاد وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وما أخرجه ابن جرير فى تفسيره والحاكم فى المستدرك عن ابن عباس

---

(١) الحج (٧٨/٢٢)

(٢) البقرة (٢٨٦/٢)

والإصر هو الثقل كما ذكر الطبرى فى تفسيره (١٣٧/٦) والمعنى أى لا تثقل علينا من الفرائض ما ثقلته على بنى إسرائيل .

(٣) ساقطة من الأصل .

قال : (ما ابتلى أحد لهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم) . قال تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن »(1) قيل ما الكلمات قال : الإسلام ثلاثون سهماً : عشر فى قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون إلى آخر الآية ... »(2) وعشر فى أول سورة قد أفلح وسأل سائل وعشر فى الأحزاب « إن المسلمين والمسلمات ... إلى آخر الآية » فأتمهن كلهن فكتب له براءة قال تعالى : « وإبراهيم الذى وفى » (3) .

وأخرج الحاكم من وجه آخر عن ابن عبّاس قال سهام الإسلام ثلاثون سهماً لم يقمها أحد إلا إبراهيم ومحمد عليهما السلام فعرفا بذلك لأن الإسلام اسم لمجموع هذه السهام ولم تشرع كلها إلا فى هذه الملة وملة إبراهيم .

ولهذا أمر النبى ﷺ وفى غير ما آية من القرآن باتباع وهى الحنيفية .

[المعنى](4) الثالث : أن الإسلام مدار معناه على الانقياد والإذعان ولم تذعن أمة لنبيّها كما أذعنت هذه الأمة ؛ فلذلك سموا المسلمين وكانت الأنبياء تذعن(5) إلى الرسل الذين يأتون بالشرائع كما تقدم فى عبارة الراغب فسموا مسلمين وكانت الأمم كثيرة فى الاستعصاء على أنبيائهم كما دلت على ذلك الأحاديث والآثار .

منها حديث « إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » وقد قال المقداد يوم بدر : الا تقولوا كما قالت بنوا إسرائيل لموسى أذهب أنت وربك فقاتلا .. إنا معكم مقاتلون والله لو سرت بنا إلى برك المعاد(6) لاتبعناك وفى لفظ لو خضت بنا البحر لخضناه . فذلك اختصت هذه الأمة بأن سموا مسلمين من بين سائر الأمم ، وكلما

---

(1) البقرة (٢/١٢٤)

راجع أقوال المفسرين فى ذلك فى الدر المنثور للمؤلف (١/١١١) وجامع البيان (٣/٨) وما بعدها والبحر المحيط لأبى حيان (١/٣٧٦)

(2) التوبة (٩/١١٢)

راجع التفسير فى جامع البيان (١١/٢٨) ولسان العرب (٣/٣٢٣)

(3) النجم (٥٣/٣٧)

(4) وفى : بلّغ ، قال الحسن رضى الله عنه. ما أمره الله تعالى بشيء إلا بلغه . راجع أيضاً تفسير الخازن (٤/٢٢٣)

(5) تذعن : تخضع ، من الإذعان ، وما بين المعقوفين ساقط من الأصل .

(6) كذا ورد بالأصل .

وقع فى عبارة السلف من قولهم : الإسلام دين الأنبياء وحدهم دون أممهم لما تقدم تقريره على حد قوله ﷺ عن هذا « وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى »[1] .

فضل : لما فرغت من تأليف هذه الكراسة واضطجعت على[2] الفراش للنوم ورد على قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين »[3] فكأنما ألقى على جبل بكله[4] ، هذه الآية ظاهرها الدلالة للقول بعدم الخصوصية وقد فكرت فيها ساعة و لم يتجه لى شىء فلجأت إلى الله تعالى ، ورجوت أن يفتح بالجواب عنها فلما استيقظت وقت السحر ، إذا بالجواب قد فتح فظهر لى عنها ثلاثة أجوبة .

الأول : أن الموصوف فى قوله « مسلمين » اسم فاعل مراد به الاستقبال كما هو حقيقة فيه لا الحال ولا المضاف الذى هو مجاز والتمسك بالحقيقة هو الأصل وتقدير الآية : « إنا كنا من قبل مجيئه عازمين على الإسلام » لما كان نجده فى كتبنا من نعته ووصفه ، ونظيره قوله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون »[5] .

فالوصفان مراد بهما الاستقبال أى ستموت ويموتون وليس المراد الحال بها قطعاً كما هو ظاهر . فكذلك المراد فى الآية إنا كنا من قبله عازمين أن نسلم إذا جاء ، ويرشح هذا الجواب أن السياق يرشد إلى أن قصدهم الإخبار بحقيقة القراءة ، وأنهم كانوا على قصد[6] الإسلام إذا جاء به النبى ﷺ لما كان عندهم من صفاته ، وظهر من دنو[7] زمانه واقتراب بعثته ، وليس قصدهم الثناء على أنفسهم فى حد ذاتهم بأنهم كانوا بصفة الإسلام أولاً ، فإن ذلك ينبىء[8] المقام كما لا يخفى[9] .

---

(١) لم نقف على سند هذا الحديث . و[هذا] ساقطة من الأصل
(٢) وردت بالأصل (عن) وهو خطأ تحريف .
(٣) القصص (٢٨/٥٣)
(٤) كذا ورد بالأصل .
(٥) الزمر (٣٩/٣٠)
راجع التفسير الكبير (٢٦/٢٨٢)
(٦) قصد الإسلام : لا حب طريقة ، وسواء محجته بنية صادقة محضة .
(٧) دنو زمانه : قربه .
(٨) كذا بالأصل .
(٩) وردت بالأصل (يخفى) بغير اللام ، وهو تحريف خطير من الناسخ .

الجواب الثانى : أن يقدر فى الآية « إنا كنا من قبله مسلمين »[1] بوصف الإسلام سببه القرآن لا التوراة والإنجيل ، ويرشح ذلك ذكر الصفة فى الآية الأولى حيث قال : « هم به يؤمنون »[2] فدل على أن الصلة مرادة فى الثانية أيضاً وإنما حذفت كراهة لتكرارها فى الآية مرتين حيث ذكرت فى قوله : « آمنا به » فكرة إعادتها مرة أخرى فى الآية وحذفت إزالة القلق التكرار .

الجواب الثالث : أن هذا الوصف منهم بناء على ما هو مذهب الأشعرى من أن من كتب الله أنه يموت مؤمنا فهو يسمى عند الله مؤمنا ولو فى حالة كفر سبقت منه ، وكذا بالعكس والعياذ بالله ، وإنما لم يطلق عليه هذا الوصف عندنا لعدم [علمنا][3] الخواتيم[4] والمستقبلات ، فكذلك هؤلاء لما ختم الله لهم بالدخول فى الإسلام ، وصفوا أنفسهم به من أول أمرهم لأن العبرة فى هذا الوصف بالخاتمة ، وإذا كان الكافر المشرك يوصف فى حال شركه بأنه مؤمن عند الأشعرى لما قرر له من الإيمان عند الخاتمة ؛ فلا يوصف بالإسلام من كان على دين حق لما قرر له من الدخول فى الإسلام عند الخاتمة من باب أولى ، هذا معنى دقيق استفدناه فى هذه الآية من قواعد علم الكلام ، وبهذا يعرف من أن من لم يتقن العلوم كلها ويطلع على مذاهب علماء الأمة ومداركها وقواعدها لم يمكنه استدلال ولا استنباط ، وهذا [لغز][5] ليس بالهين .

فصـــل : حيث ذكر الله هذه الأمة فى القرآن ذكرها بالإسلام أو الإيمان خطاباً وغيبة كقوله : « هو سماكم المسلمين » « ياأيها الذين آمنوا[6] » « أيه المؤمنون[7] » وحيث ذكر الأمم السابقة لم يصفهم قط باسلام لا إن مدحهم ولا إن ذمهم بل قال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين[8] » وقال : قل يا أيها الذين

(١) القصص (٥٣/٢٨)

(٢) أى بالإسلام .

(٣) بياض بالأصل .

(٤) بالأصل (بالخواتم)

(٥) فى الحاوى (أمر)

(٦) و (٧) خطاب للمؤمنين .

(٨) البقرة (٦٢/٢) قال قتادة : الصابئون قوم كانوا يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، ويقرؤون الذنوب . راجع تفسير الطبرى (١٤٧/١) والدر المنثور للمؤلف (٧٥/١)

هادوا إن زعمتم[1] » وقال : « يحكم بهاالنبيون الذين أسلموا للذين هادوا[2] » وقال : « لتجدن أشد الناس » عداوة للذين آمنوا إلى « رهباناً » فهذه الآية ذكرت مدحاً لمؤمنى النصارى و لم يسمهم مسلمين بل قال : « الذين قالوا : إنا نصارى[3] » وقال في غيرها آية عند مدح المؤمنين منهم ومن اليهود الذين أتيناهم الكتب ، « وإن من أهل الكتاب[4] » ، فأكثر ما اطلق عليهم عند المدح وصفهم بأنهم ياأهل الكتاب ، ومن أهل الكتاب ، وأما كتبهم فيوصف فيها هذه الأمة بالإسلام كما قال : « هو سماكم المسلمين من قبل[5] » قال سفيان بن عيينة : أى في التوراة والإنجيل و لم يصفهم فيها باسلام البته .

أخرج أبو حاتم فى تفسيره عن خيثمة قال : كل ما تقرأون فى القرآن « يا أيها الذين آمنوا » بأنه فى التوراة يا أيها المساكين .

فصــل : رأيت فى كلام الإمام أبي عبد الله ابن أبى الفضل المرسي ما يشهد لما قدمته فقال فى تفسيره عند قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم » مانصه : لما قال الفريقان إن ابراهيم على دينهما رد عليهما وأخبر أنه على الإسلام ، قال : فإن قيل : كيف يكون على الإسلام وهو أيضاً نازل بعده ؟ قيل : القرآن أخبر بذلك وما أخبرت كتبهم بما ادعوه فهو أيضاً موافق لليهود والنصارى الذين كانوا على ما جاء به موسى وعيسى فى الأصول ، فإن جميع الأنبياء متوافقون فى الأصول ، وإن أريد به فى الفروع فيكون النبي ﷺ مقرراً لا شارعاً .

أيضاً فإن التقييد بالقرآن ما كان موجوداً فى زمان إبراهيم فتلاوته فى صلاته غير مشروعة فى صلاتهم ، قيل أريد الفروع ويكون النبى ﷺ شارعاً لا مقرراً لأن الله نسخ شريعة إبراهيم بشريعة موسى ، وعيسى ثم نسخ محمد ﷺ شريعته فكان صاحب

---

(١) الجمعة (٦/٦٢)
(٢) المائدة (٤٤/٥)
(٣) المائدة (١٤/٥)
(٤) آل عمران (١٩٩/٣)
(٥) البقرة (٢٠٨/٢)
السلم : هو الإسلام ، وذكر الطبرى (٢٥٢/٤) : أنها تقرأ بفتح السين .

شريعة كذلك ، ثم كان موافقاً فى الأكثر وإن خالفه فى الأقل لم يقدم ذلك فى الموافقة ، انتهى كلام المرسى وهو سؤال حسن ، وجواب نفيس .

فصل : دليل ثالث وعشرون ، وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة »(1) قال أهل التفسير : قوله فيمن أسلم من أهل الكتاب وبقى على تعظيم شريعته كالسبت وترك لحوم الإبل ؛ فأمرهم أن يدخلوا فى شرائع الإسلام كافة ولا يتمسكوا فى شيء من أحكام التوراة لأنها منسوخة « ولا تتبعوا خطوات الشيطان »(2) فى التمسك ببعض أحكام التوراة بعد أن عرفتم نسخه ، وكافة من وصف السلم كأنه قال : ادخلوا فى جميع شرائع الإسلام اعتقاداً وعملاً هذه عبارة المرسى فى تفسير هذه الآية .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب تمسكوا ببعض أمر التوراة والشرائع التى نزلت فيهم يقول : ادخلوا فى شرائع محمد ولا تدعوا منها شيئاً ، وهو صريح فى أن شريعة التوراة لا تسمى إسلاماً .

تنبيه : ذكر السبكى فى فتاويه : لما تكلم على عموم رسالته ﷺ إلى الجن عدة آيات من القرآن ان استدل بها على ذلك ثم قال عقب ذلك : واعلم أن المقصود بتكثير الأدلة أن الآية الواحدة والآيتين قد يمكن تأويلها ويتطرق إليها الاحتمال والتأويل عنها .. انتهى .

أقول : وقد أوردنا هنا ثلاثة وعشرين دليلاً أن كل دليل منها على انفراده قد يمكن تأويله ويتطرق الاحتمال إليه فلما كثرت هذه الكثرة ترقت(3) إلى حدٍ غلب على الظن إرادة ظاهرها(4) ونفى الاحتمال والتأويل عنها ، وعبرت بغلبة الظن دون القطع لأجل ما عارضها من الآيات التى استدل بها للقول الآخر ، وهذا مقام لا ينظر فيه ولا يحكم فيه بالترجيح إلا المجتهد ، والله الموفق .

وهذا آخر تأليف المسمى : « إتمام النعمة »
« فى اختصاص الإسلام بهذه الأمة »

---

(1) البقرة (٢/٢٠٨)

(2) راجع أسباب النزول للسيوطى ص ٣٩ .

(3) ترقت : أخذت فى الترق ، وهو الارتفاع .

(4) أى أنها غير مصروفة عن هذا الظاهر لعدم وجود ما يقتضى هذا الصرف والعدول عنه .